İslam Medeniyeti Araştırmaları Dergisi (İMAD)
(The Journal of Islamic Civilazition Studies)
Cilt: 1/Sayı: 1, Aralık 2014, ss. 88-109.
http://imad.dpu.edu.tr

العتاب والشكوى في قصائد علي بن الجهم

Ali bin el-Cehm'in Şiirlerinde Ayıplama ve Şikâyet

Admonition and Blaming in the Poetry of Ali-Ibin-Al Chahm

كوران صلاح الدين شكر*
حـازم برهـان مصطفـــى**

الملخص:-

يتناول البحث قصائد الشاعر العباسي المشهور بقصائده الفكرية والسياسية ونظرته الجميلة إلى الحياة بعيداً عن التعقيد والغموض وفي أسلوب بسيط قريب المأخذ. وارتأينا أن نتحدث عن العتاب في قصائد علي بن الجهم, فالعتاب من الأغراض الشعرية الرقيقة والدقيقة. وكان هذا الغرض في الشعر العربي العباسي من الأغراض الشعرية المهمة، إذ كان مواكبًا لحركة الإيقاع السياسي راصدًا لأحداثه مستبطنًا دواخله ومقومًا لاتجاهاته. فضلا عن انه يتميز بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي كانت الديمومة اهم سماتها وكان الشاعر فيها ابن الحدث المباشر والشاهد المبصر والسامع بشكل مباشر فكانت أشعار العرب في ذلك غزيرة وكانت تدور حول سلبيات المجتمع بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصرافهم عن الجد. فإنه غرض شعري يضع الشاعر في موقف حرج يحتاج إلى براعة وجدارة وحيطة لكي يجعل العتاب متوازناً بين عواطفه وعواطف المعاتب.فقد تعرض الشاعر إلى مواقف عديدة جعلته عرضة للظلم والغبن مما دفع به إلى الشكوى من الدهر والزمن والأيام لاسيما وأن الإحساس بالظلم كان نابعاً من مشاكله مع حاشية المتوكل.

الكلمات الدالة :العتاب, الشكوى, الخليفة, الشاعر, الظلم.

* Goran Selahaddin, Dr., Selahaddin Üniversitesi, Diller Fakültesi
** Hazim Burhan Mustafa, Dr., Selahaddin Üniversitesi, Diller Fakültesi

Özet

Araştırmamızın konusu Abbasi döneminde fikir, siyaset ve güzel dünya görüşü ile ün kazanan ve şiirlerinde kolay bir üslup kullanan Ali bin el-Cehm'in şiirlerinde ayıplama ve şikâyet konusu olmuştur. Arap şiirinde ayıplama konusu hem ince hem de güzel bir konu olarak karşımıza çıkar ve bu çok önemli konulardan biri olmuştur. Çünkü hem sosyal hem de siyasi gelişmelerden etkilenmiş ve bu gelişmeleri inceleyip ona yön vermiştir. Ayrıca şairin yaşadığı sıkıntılar ve çektiği çile onun sanatsal tecrübelerini geliştirmiştir. Şair her zaman olayların merkezinde olup gelişmelerden direkt etkilenmiştir. Bu konuda Arapların şiirleri oldukça fazladır. Toplumun olumsuz yönlerini, özellikle insanların israf ve eğlence düşkünlüğü ve ciddiyetten uzak hallerini işlemişlerdir. Ayrıca ayıplama konusu, şairleri her zaman ciddi bir şekilde zor bir durumda bırakmıştır. Çünkü şairler kendi duygularını ve ayıpladıkları kişilerin de duygularını dikkate almışlardır. Ayıplama ve şikâyetin her zaman en büyük nedenlerinden biri şairlerin uğradıkları haksızlıklar olmuştur. Konumuzun şairi de uğradığı haksızlığın nedeni ve kaynağı halife el-Mutevekkil olduğu için bu duyguyu çok fazla yaşamış ve şiirlerinde o duyguyu yaşatmıştır.

Anahtar kelimeler: Ayıplama, Şikâyet, Halife, Şair, Haksızlık

Abstract

This research paper deals with the poems of the eminent poet of Abbasid age who was famous for his political and philosophical ideas with his beautiful view towards life faraway from ambiguity and complexity. Thus, admonition was Al-i-Ibin-Al-Chahm's poetic diction which was highly elevated. In the Abbasid poetry, this aim was one of the important aims which was accompanying the political movement's tone, censoring its events, deriving its contents and evaluating its directions. In addition to this, it is characterized by its mature artistic experience of the continuous sufferings. Arabic poetry was abundant at that time, revolving around society's negative aspects, as people were indulged in the life of amusement and luxury, stepping aside from any seriousness. Here, the poet was the loyal son of the direct events, the direct eyewitness and audience. In this sense, the poet must be talented in order to make a balance between his own feeling and the feeling of the reproached person. As a matter of fact, the poet had faced so difficulty and unfair situation throughout his life which pushed him to blame time mainly with those who were the guardians of Al_Mutawakil.

Key words: Admonition, Blaming, Poem, Al_Mutawakil, Unfair

المقدمة:

بما أن الشعر مرآة للمجتمع فهو يعكس ذات الشاعر وعواطفه وأحاسيسه الفنية و الاجتماعية والسياسية من جانب آخر, فالشعر العربي وعلى الخصوص في العصر العباسي لم يكن بمعزل عن السياسة والتحزب لاسيما و أن الأحداث التي كانت تعصف بالمجتمع الإسلامي والعربي بشكل خاص في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي كانت دافعة لظهور طبقة من الشعراء معروفين بالقرب من السلطة والحكم والاتجاه السياسي الذي ينتمون إليه, فالحالة السياسية لم تكن مستقرة فقد كانت في ثورة وحركة مستمرتين امتداداً للأحداث الواقعة في القرن الأول للهجرة من انقسام سياسي للمجتمع وظهور الأمويين كحزب سياسي قومي يطالبون بالحكم ويعلنون الحكم الوراثي بعد استلامه[1]. وحكموا البلاد حكماً شديداً معتمدين في ذلك على القوة مما زاد من سخط المجتمع حتى أصبح من المتعذر أن تستمر الحال على ما كان عليه من القساوة والظلم. لذلك نجد الأحزاب قد نشطت في هذه الفترة كالخوارج والشيعة الذين كانوا ناقمين على الحكم في هذه الفترة إلى جانب هذا كانت الدعوة العباسية تأخذ مكانها في المشهد السياسي وتستلم الحكم من الأمويين وتخفف من العصبية القبلية مع عدم التنازل عنها بشكل تام لذا نرى عناصر غير عربية مشتركين في الحكم مع العرب[2]إلى درجة تم بها سيطرة عناصر غير عربية على مناصب مهمة من الدولة.

كان لاستقرار الدولة الجديدة وانتقال الحكم إلى البيت العباسي أثر كبير في شعراء العصر إذ كان للعامل السياسي حظه الكبير في توجيه شعراء كل عصر ولاسيما حين تتسع مظاهر التأثير في الأحداث الواقعية[3], فكان مقتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك[4] وفي ذلك يقول علي بن الجهم[5] في القصيدة التالية[6]:-

[1] اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري , د.محمد مصطفى هدارة , دار المعارف بمصر , الطبعة الثالثة 1969 ,ص16 .

[2] تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول , د.شوقي ضيف , دار المعارف بمصر 1973 , ص195 .

[3] التيار الاسلامي في الشعر العباسي الأول , د. مجاهد مصطفى بهجت , جامعة بغداد- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية , الجمهورية العراقية , ص420.

[4] الحياة الادبية في العصر العباسي , الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي , دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر , الإسكندرية- مصر ,الطبعة الأولى 2004 , ص14.

بَني هاشمٍ صبراً فكلُّ مُصيبةٍ سَيَبلى على طُولِ الزَّمانِ جديدُها

عبيدُ أميرِ المؤمنينَ قتلنهُ وأعظمُ آفاتِ الملوكِ عبيدُها

وعلى العموم يمكن القول أن الدعوة العباسية كانت تقوم على فكرة دينية ذات شقين؛ الأول إعادة سلطان الدين إلى مكانها من الحياة الإسلامية والثاني أن الحق الموروث يجب أن يعود إلى أهله ومن هنا كان من الطبيعي أن تجتذب اليها عدداً من الشعراء يؤكدون هذا الحق في شعرهم ويمدحون الخلفاء العباسيين, وكان من الطبيعي أن يكون الشعراء الملتفين حول الخليفة من أعداء العلويين ومن المبشيرين بالخلافة العباسية وعقيدتها[7] , والضد بالضد فيما يتعلق بالشعراء الملتفين حول العلويين[8]. انظر قصيدة علي بن الجهم وهو يمدح الخليفة العباسي المشهور المتوكل[9]:-

وما أنا ممَّن سارَ بالشّعرِ ذكرُه ولكنَّ أشعاري يُسيَّرها ذكرِي

وللشِّعرِ أتباعٌ كثيرٌ ولم أكـنْ لـــه تابعاً في حالِ عسرٍ ولايسرِ

وما الشعرُ ممَّا أسّتظلُّ بظلِّهِ ولا زادني قدراً ولا حطَّ منْ قدري

ولـكنَّ إحسانَ الخلفيةِ جعفرٍ دعاني إلى ما قلتُ فيهِ من الشِّعرِ

[5]هو علي بن الجهم بن البدر بن المسعود بن أسيد بن ذينة...حتى ينتهي نسبه إلى غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة... ويكنى أبا الحسن وأصله من خرسان وهو شاعر مطبوع عذب الالفاظ سهل الكلام مقتدر على الشعر. مدح المعتصم والواثق وجالس المتوكل. أغلب الظن ولد في بغداد وتفتحت عيناه إلى الحياة بداره في شارع دجيل , وقد درج الشعر في بغداد وهو يعيش عصرها الذهبي اللامع , انظر:- موسوعة شعراء العباسي , اعداد عبد عون الروضان , دار أسامة للنشر والتوزيع , ج171/1 , وانظر :-الشعر والشعراء في العصر العباسي , مصطفى الشكعة , دار العلم للملايين , بيروت-لبنان , الطبعة الرابعة1973 , ص253.

[6] ديوان علي بن الجهم , تحقيق خليل مردم بك , دار صادر , بيروت-لبنان ,ص 117.

[7] اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري , د. محمد مصطفى هدارة , دار المعارف بمصر , الطبعة الثالثة 1969 , ص93.

[8] التشيع وأثره في الشعر العباسي الأول , د.محسن غياض , مطبعة النعمان , العراق- النجف الأشرف , 1973 , ص131.

[9] الديوان , ص139.

هناك قصائد كثيرة للشاعر في مدح الخلفاء والأمراء الذين عاصرهم من أجل التقرب منهم وتحقيق المكاسب والمصالح الشخصية, وكانت مدائحه تعبر عن الصدق الفني في معانيه وتعابيره, وهو يمدح معظم الخلفاء في انتصاراتهم على الأعداء ويصف عدالة حكمهم. وكان علي بن الجهم, كما وصفه إبن المعتز, "شاعراً مطبوعاً قادراً على أن يطبع لسانه حيث يشاء, و أن يطرق أبواب الشعر المعروفة في عصره كلها"[10].

العتاب[11] والشكوى[12] في قصائد علي بن الجهم:-

[10] طبقات الشعراء لابن المعتز , تحقيق عبد الستار الفراج , دار المعارف بمصر , الطبعة الثانية 1956 , ص46.

[11] العَتَبَ المَوْجِدَةُ. عَتَبَ عليه يَعْتِبُ ويَعْتُبُ عَتْباً وعِتاباً ومَعْتِبَة ومَعْتَبَةً ومَعْتَباً أي وجد عليه. قال الغَطَمَّشُ الضَّبِّيُّ، وهو من بني شُقْرة بنِ كعب بن ثَعْلبة بن ضَبَّة، والغَطَمَّشُ الظالِمُ الجائر: أَقُولُ، وقد فَاضَتْ بعَيْنِيَ عَبْرةٌ: * أَرَى الدَّهْرَ يَبْقَى، والأَخِلاَّءُ تَذْهَبُ أَخِلاَّيَ! لو غَيْرُ الحِمام أَصابَكُمْ، * عَتَبْتُ، ولكنْ ليسَ للدَّهْرِ مَعْتَبُ وقَصَرَ أَخِلاَّيَ ضرورةً، ليُثْبِتَ بباءَ الإضافة، والرواية الصحيحة: أَخِلاَّءَ، بالمد، وحذف ياء الإضافة، وموضع أَخِلاَّءَ نصبٌ بالقول، لأَن قوله أَرى الدهر يبقى، متصلٌ بقوله أَقول وقد فاضت؛ تقديره أقول وقد بَكَيْتُ، وأَرى الدهرَ باقياً، والأَخِلاَّءَ ذاهبين، وقوله عَتَبْتُ أَي سَخِطْتُ، أَي لو أُصِبْتُمْ في حَرْب لأَدْرَكنا بثأْركم وانتصرنا، ولكن الدهرَ لا يُنْتَصَرُ منه. وعاتَبَهُ مُعاتَبَةً وعِتاباً: كلُّ ذلك لامه؛ قال الشاعر: أُعاتِبُ ذا المَوَدَّةِ من صَديقٍ، * إِذا ما رَابَنِي منه اجْتِنابُ إِذا ذَهَبَ العِتابُ، فليس وُدٌّ، * ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتابُ ويقال: ما وَجَدْتُ في قوله **عُتْباناً**؛ وذلك إِذا ذكر أَنه أَعْتَبَكَ، ولم تَرَ لذلك بَياناً. وقال بعضهم: ما وَجَدْتُ عنده عَتْباً ولا عِتاباً؛ بهذا المعنى. قال الأَزهري: لم أَسمع العتب والعتبان والعِتاب بمعنى الإِعْتابِ، إِنما العتب والعتبان لومُك الرجلَ على إِساءة كانت له إِليك، فاسْتَعْتَبْتَه منها. وكلُّ واحد من اللفظين يَخْلُصُ للعاتِب، فإِذا اشتركا في ذلك، وذَكَّرَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ما فَرَطَ منه إِليه من الإِساءة، فهو العِتابُ والمُعاتَبة. فأَمَّا الإِعْتابُ والعتبى: فهو رُجوعُ المَعْتُوب عليه إِلى ما يُرْضِي العاتِبَ. والاسْتِعْتابُ: طَلَبُك إِلى المُسِيءِ الرُّجُوعَ عن إِساءَته. والتَّعَتُّبُ والتَّعاتُبُ والمُعاتَبَةُ: تواصف الموجِدَة. قال الأَزهري: التَّعَتُّبُ والمُعاتَبَةُ والعِتابُ: كل ذلك مُخاطَبَةُ الإِدْلالِ وكلامُ المُدِلِّينَ أَخِلاَّءَهم، طالبين حُسْنَ مُراجعتهم، ومذاكرة بعضِهم بعضاً ما كَرِهُوه مما كسبَهم المَوْجِدَةَ. وفي الحديث: كان يقول لأَحَدِنا عند المَعْتِبَة: ما لَهُ تَرِبَتْ يمينُه؟ رويت المَعْتَبَة، بالفتح والكسر، من المَوْجِدَة.(لسان العرب , للإمام العلامة إبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري ,طبعة جديدة محققة , دار صادر–بيروت ,ج22/10).

[12] شكا الرجلُ أَمْرَه يشْكُو شَكْواً، على فَعْلاً، وشَكْوى على فَعْلى، وشَكاةً وشَكاوَةً وشِكايةً على حَدّ القَلْب كعَلايةٍ، إِلاَّ أَنَّ ذلك عَلَمٌ فهو أَقْبَلُ للتَّغْيير؛ السيرافي: إِنما قُلِبت واوُه ياءً لأَن أَكثر مصادِرِ فِعالَةٍ من المُعْتَلّ إِنما هو من قِسْمِ الياءِ نحو الجِراية والوِلايَة والوِصايَة، فحُمِلت الشِّكايَةُ عليه لِقِلَّة ذلك في الواو.وتَشَكَّى واشْتَكى: كشَكا.وتَشاكى القومُ: شَكا بعضُهُم إِلى بَعْضٍ.وشَكَوْتُ فلاناً أَشْكوه شَكْوى وشِكايَةً وشَكِيَّةً وشَكاةً إِذا أَخْبَرْتَ عنه بسُوءِ فِعْلِه بِكَ، فهو مَشْكُوٌّ ومَشْكِيٌّ والاسْم الشَّكْوى. قال ابن بري: الشِّكاية والشَّكِيَّة إِظْهارُ ما يَصِفُك به غيرُك من المَكْرُوهِ، والاشْتِكاءُ إِظْهارُ ما بِكَ من مَكْرُوهٍ أَو مَرَضٍ ونحوِه.وأَشْكَيْتُ فلاناً إِذا فَعَلْتَ به فِعْلاً أَحْوَجه إِلى أَن يَشْكُوك، وأَشْكَيْتُه أَيضاً إِذا أَعْتَبْته من شَكْواهُ ونَزَعْتَ عن شَكاته وأَزْلْتَه عمَّا يَشْكُوه، وهو من الأَضْداد. وفي الحديث: شَكَوْنا إِلى رسول الله؛ صلى الله عليه وسلم، حَرَّ الرَّمْضاءِ فلم يُشْكِنا أَي شَكَوْا إِليْه حرَّ الشَّمْسِ وما يُصِيبُ أَقْدامَهُم منه إِذا خَرجوا إِلى صَلاةِ الظُّهْرِ، وسأَلوه تأْخِيرَها قليلاً فلم يُشْكِهِمْ أَي لم يُجِبْهُم إِلى ذلك ولم يُزِلْ شَكْواهم. ويقال: أَشْكَيْت الرجُلَ إِذا أَزَلْت شَكْواه وإِذا حَمَلْته على الشَّكْوى؛ قال ابن الأَثير: وهذا الحديث يذكر في مواقيت الصلاة لأَجْلِ قول أَبي إِسحق أَحد رُواته: قيل له في تَعْجيلِها فقال نعَم، والفُقَهاء يَذْكرونه في السُّجودِ، فإِنَّهم كانوا

لم تفرد لغرض العتاب عند علي بن الجهم دراسة مستقلة من قبل بينما كانت هنالك دراسات للأغراض البارزة الأخرى في قصائد الشاعر كالمديح ، والهجاء ، والغزل ، وغير ذلك من الأغراض الشعرية و إن تقديم فكرة مبسطة عن هذا الموضوع في قصائد الشاعر يساهم في تحقيق أهداف البحث ، ويسلط الضوء على جانب واسع من جوانب علاقات الشاعر الاجتماعية لاسيما للتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي حدثت في العصر العباسي الاثر في الشعر من حيث البواعث، والموضوعات فقد بقي موضوع الشعر في هذا العصر كما كان.

حياة الشاعر كانت مليئة بالأحداث العجيبة منذ الطفولة وكان والده قد تولى العديد من وظائف الدولة وذلك بتعاقب الخلفاء, مما يدل على أنه كان لأسرته بعض الجاه والوجاهة!! لذا نشأ الشاعر في حياة تتميز بطلب العلم, وقد حضر الكتاتيب وإنه كان مشاغبا في طفولته كثير الحركة حتى انزعج والده من كثرة لعبه وشغفه بالبيت, فطلب من معلمه أن يسجنه ففعل, فاغتاظ الشاعر من والده وكتب إلى أمه مستغيثا[13]:-

يا أُمَّتاه أفديكِ مـنْ أمٍّ أشكُو إليكِ فظاظةَ الجهمِ

قدْ سرَّحَ الصِّبيانُ كلُّهمُ وبقيتُ محصوراً بِلا جرمِ

يبدو أن أولى محاولات الشاعر كانت من جنس الهجاء الذي يتخلله العتاب من الأب والشكوى من سوء المعاملة إلى الأم وهذا مما يدل على أن لسان الشاعر سيكون من الحدة التي سيكتوي الخصوم بنارها لاحقا!! و الملاحظ من هذه المحاولة البدائية للشاعر أنه يستعطف أمه ويشكو من أبيه في أسلوب سهل ورقيق لاسيما وأن الشاعر استطاع أن يعبر عن عواطفه حيال الحدث والمشكلة ببيتين يدلان أو ينبئان على

يَضَعون أَطْرافَ ثِيابِهم تحت جباهِهِم في السجود من شِدَّة الحرّ، فَنُهُوا عن ذلك، وأَنَّهم لما شَكَوْا إليه ما يجدونه من ذلك لم يَفْسَحْ لهُمْ أَن يَسْجُدوا على طَرَف ثِيابِهِمْ. واشْتَكَيْته: مثلُ شَكَوْته. وفي حديث ضَبَّةَ ابنِ مِحْصَنٍ قال: شاكَيْتُ أَبا مُوسى في بَعْض ما يُشاكي الرجلُ أَميرَه؛ هو فاعَلْت من الشَّكْوى , وهو أَن تُخْبِر عن مكروه أَصابَك. (لسان العرب , للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري , طبعة جديدة محققة , دار صادر–بيروت ,ج122/8).

[13] الديوان , ص212.

موهبته الشعرية التي تفتحت مبكراً... فلم يكد ينتهي من أخذ الدروس حتى أصبح شاعراً ينساب منه الشعر بيسر وسهولة.

مع ازدياد ازداد خصوم الشاعر تنوعوا وآن الأوان لكي يتخلصوا منه ويقطعوا بينه وبين الخليفة, وبدأ كل منهم يذكرونه بالقبيح عند المتوكل ويشوهون صورته, والعجيب في الأمر أن الشاعر كان على العلم بخصومه وأعدائه الذين دبروا له المكايد وأفسدوا عليه العلاقة مع المتوكل حيث يقول الشاعر في خصومه ويصفهم بما لايحبه الخليفة[14]:-

تضافرتِ الرَّوافض والنَّصارى وأهلُ الاعتزالِ على هجائِي

وربما لم تسنح الفرصة للشاعر أن يشير إلى جميع أعدائه في هذا البيت الشعري وإنما اكتفى بالإشارة إلى البعض منهم على اختلاف دينهم وفكرهم ومذهبهم, فالتضافر تدل على التعاون والمشاركة في شيء أو أمر معين بين أعداء الشاعر من الروافض والنصارى وأهل الإعتزال من أجل خلق المشاكل له وإفساد الأيام عليه, فالشكوى واضحة كل الوضوح وإن كانت ضمناً سيما وأن ذكاء الشاعر كان يدفع به إلى قلب الوضع على الأعداء والخصوم عن طريق وصفهم بصفات تدل على عدائهم بشكل أو آخر للخليفة والدعوة العباسية, فأراد بالروافض نجاح بن سلمة, وبالنصارى بختيشوع, وبأهل الاعتزال علي بن يحيى المنجم.

العتاب من الأغراض الشعرية الرقيقة والدقيقة التي تختلف عن الأغراض الشعرية المعروفة فالمدح مثلا يصف فيه الشاعر الممدوح بالقيم الإنسانية النبيلة, والهجاء يلجأ الشاعر فيه إلى ذكر مساوئ المهجو, أما العتاب فإنه غرض شعري يضع الشاعر في موقف حرج يحتاج إلى براعة و جدارة و حيطة لكي يجعل عتابه متوازناً بين عواطفه وعواطف المعاتب, ولذلك كانت طرق العتاب كثيرة تختلف باختلاف أساليب الشعراء في بواعثهم وموضوعاتهم, فالعتب يطلق على فساد العلاقة بين طرفين فيحدث العتب لدى العاتب, فيلوم الطرف الذي أساء المودة أملاً بالإعتاب أو العتبى(رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العتاب).

[14] المصدر نفسه , ص60.

كانت منزلة الشعراء البارزين لدى رجال الدولة عرضة للمنافسة والضغينة بما يكنه لهم حسادهم فإنهم غالبا ما يتعرضون إلى الغض من منزلتهم ، فيدفعهم ذلك إلى العتاب, ومن الأمثلة الرائعة للعتاب ما قام به الشاعر من عتاب للخليفة المتوكل فقد دفعه جلده وكبرياؤه, وقوة شخصيته في بداية سجنه إلى قول[15]:-

يا أحمدُ بن أَبي دؤاد انَّما ... تُدعى لكلِّ عظيمةٍ يا أحمدُ

بلِّغ أميرَ المؤمنينَ ودونَه ... خوضُ العِدى ومخاوفٌ لا تنفدُ

أَنتم بني عـمِّ النبيِّ محمَّدٍ ... أولـــى بِما شرعَ النبيُّ محمَّدُ

ما كان مِن حسنٍ فأنتمْ أهلُهُ ... طابتْ مغارسكمْ وطابَ المحتدُ

أمن السَّويَّةِ يابنَ عمِّ محمَّدٍ ... خصمٌ تقرِّبـهُ وآخرُ تبعدُ

إنَّ الذين سعوْا إليكَ بباطلٍ ... أعداءُ نعمتكَ التي لا تجحدُ

شهدوا وغبْنا عنهمُ فتحكَّموا ... فينا وليسَ كغائبٍ منْ يشهدُ

تعددت البواعث في العصر العباسي للإقصاء والإبعاد من غير سبب, فالبواعث كانت وليدة عوامل سياسية واجتماعيةانعكست آثارها على رجال الدولة بالدرجة الأساسية. وعلى الرغم من أن عتاب الخلفاء ليس جديداً فإن البواعث كانت جديدة ، وأسلوب الشاعر فيه يميل إلى الرقة ، والوضوح ، ويمكن أن نعد مشروعية العتاب، وسابق الصلة بين الشاعر والخليفة من أسباب نجاح الشاعر في إيراد ما يسوغ عتابه فهنالك تحول سياسي واجتماعي اقترب فيه الشاعر من الخليفة.

يشكو الشاعر من حاله ومما آل اليه الوضع به باطلا دون سبب, حيث دفع به ذلك إلى عتاب الخليفة عتاباً لا يخلو من المخاشنة واللوم, ذلك لأنه خالف الشريعة وهو أولى الناس بالأخذ بأحكامها, فاستمع

[15] المصدر نفسه , ص92.

إلى أقوال أحد الخصمين وأصم أذنيه عن سماع كلام الآخر, مما جعله يحيد عن الطريق الأرشد, وقد اتخذ الشاعر العتاب وسيلة لإسماع صوته إلى الخليفة بعد أن حالت دونه ودون المتوكل الموانع[16].

ويركز الشاعر على الجانب الديني عند محاولته معاتبة الخليفة من أجل أن يكون العتاب أشد وقعاً على المعتوب عليه من جانب والمتلقي من جانب آخر, فالخليفة ابن عم الرسول صلى الله عليه واله وسلم فأحق به أن يكون عدلاً سيما وأنه لم ولن يكون خصماً له وأنّ ما قيل عنه باطل غير حق, فهم أعداء نعمته أي نعمة الخليفة, فالشاعر عندما يشكو من حاله ووضعه لايهمل ضمنا استهداف أعدائه فهم من الصغر وقلة الشأن لا يبلغون حد عداء الخليفة فهم فقط يعادون عطايا الخليفة ونعمه. رغم كل ما حصل من وقوع الشاعر في السجن والابتعاد عن الخليفة يظل وفيا له ولحكمه وفكره فهو في بداية القصيدة وإن كانت غايته العتاب والشكوى ونيل الاستعطاف لايهمل مدح الخليفة والإشارة إلى شجاعته[17]:-

قالت حبستَ : فقلتُ ليس بضائرٍ حبسي وأيُّ مهنَّدٍ لا يُغمدُ

أو ما رأيتِ اللَّيثَ يألفُ غيلهُ كبراً و أوباشُ السِّباعِ تـردَّدُ

والشمسُ لـولا أنَّها محجوبةٌ عن ناظريكِ لما أضاءَ الفرقدُ

والبدرُ يدركُـهُ السِّرار فتنجلي أيَّامـُهُ وكأنـَّهُ مـتجـدِّدُ

والغيثُ يحصرُهُ الغمامُ فما يُرى إلا وريِّقُـه يراحُ ويرعـدُ

والنارُ في أحجارِها مخبوءةٌ لا تُصطلى إنْ لم تُثرها الأزندُ

السجن ظاهرة قديمة في التاريخ البشري ، والهدف منها تحطيم إرداة المسجون , والقضاء على فاعليته ، وهي محاولة لإسكات صوته ، لجرم ارتكبه أو لشبهة ، أو يكون ظلماً وبهتاناً ، وهذا النوع الأخير هو الذي وقع فيه أصحاب المبادئ و المواقف النبيلة ، ومنهم بعض الشعراء، لذا فقد تركوا مواقف تجاهها وحديثا

[16]علي بن الجهم حياته وشعره , عبد الرحمن الباشا , دار المعارف , مصر , ص190.
[17]الديوان , ص88-89.

طويلا عن مشاعرهم وتجاربهم النفسية والوجدانية ، وصور بارعة لتحديهم للسجن والسجان. فالشاعر في أداء رائع يستفتح داليته المشهورة بحوار مع نفسه وما قيل له عن سجنه والأسباب التي أدت به إلى السجن. فالشاعر يصرح ويفصح بما في قلبه من العواطف المحبوسة, فهو يرد على السائل قائلا لا ضرر من حبسه ومما وقع فيه.

وأن براعة الشاعر وقدرته في توظيف الكلمات في معاني مختلفة تخدمها وتخدم الفكرة المطروحة جعلته يفتخر بنفسه وبوضعه من أجل التغلب على محنته, فهو كالسيف سيما وأن ما من سيف لا يغمد ولا يخلد إلى الراحة والسكينة, ويستمر في حواره قائلا ألم تر الأسد في كبره يخلد إلى الراحة والسكون. وأن لولا حجاب الشمس لما رأينا ضوء الآخرين من الحساد الحاقدين.

يجدد الشاعر الأمل في نفسه وفي نفوس الأخرين لأن البدر عندما تدركه الأيام الأخيرة من الشهر يأفل مستعداً بذلك لبداية جديدة للظهور والتجدد, فهو بذلك يتوعد الآخرين بالرجوع والعودة إلى حاله, فالشاعر لم يفقد الأمل سيما وأن عطاء الخليفة مدرك. فالصور الفنية الرائعة تدل على مدى انحباس العواطف الصادقة عنده, فهو كالنار كان مخبوءافي أصله ولا يؤذي أحداً ما لم يثره الحاقدون, في إشارة واضحة إلى أعدائه لكي يخافوا من غضبه عليهم, ويستمر الشاعر في إيراد الأمثلة في صورته المتكاملة الرائعة[18]:-

كمْ منْ عليلٍ قد تخطَّاهُ الرَّدى فنجا وماتَ طبيبهُ والعودُ

صبراً فإن الصَّبرَ يُعْقِبُ راحةً ويدُ الخليفةِ لا تُطاولها يدُ

والحبسُ ما لم تغشهُ لدنيَّةٍ شنعاءَ نعمَ المنزِلُ المتورَّدُ

بيتٌ يجدِّدُ للكريمِ كرامةً ويُزارُ فيه ولا يزور ويحفدُ

[18]المصدر نفسه , ص91-92.

بما أن الشاعر كان شاكياً من وضعه ومما وقع فيه من الغدر والغبن كان معالجاً لنفسه ووضعه. وبمقدرة عالية من القوة يقوم بترميم الصدع الحاصل في حياته ونفسيته, معيداً الأمل الى نفسه بالرجوع وتحسن الحال والأحوال فكم من مريض عاش ومات طبيبه, فإن الصبر مفتاح السعادة والأمل والراحة ولاسيما أن عطاء الخليفة ما مثله من عطاء وسخاء.

يستمر الشاعر في معالجاته الغريبة للوضع, فالسجن ما لم يكن بذنب أو خطيئة نعم المنزل الذي يتوارد عليه الشاعر في إشارة صريحة لاستعداده للرجوع إلى السجن والصبر عليه ما لم يكن بذنب مخل, سيما وأن السجن منزل يجدد للكريم كرامته وعزته, فهو عندما يذكر السجن والوضع فيه يشكو من حاله ومما وقع فيه معاتباً بذلك الخليفة في أسلوب رائع دقيق وممتع, فهو لا يقول بأنه غير مذنب مباشرة إنما يخلق من أجل ذلك جواً من الحوار والمحادثة وبيان الحال, فهو سعيد برجوعه للسجن والعودة إليه ما لم يكن مذنباً فهناك عتاب صريح من الشاعر للخليفة على اتهامه من قبل أعدائه بتهم لا أساس لها سيما وأن التهم لم تكن مخلة بكرامة الشاعر وعزته. حيث يستغرب الشاعر من كيفية تصديق الخليفة لهذه التهم موجهةله وهو أدرى الناس به وبأخلاقه.

ولا يقف الشاعر عند ذلك فقط فهو إلى جانب العتاب والشكوى من وضعه نجده يخلق جواً من الفخر والاعتزاز بنفسه وبوضعه وإن كان يعاني من أسر السجن والإبتعاد والحرمان من الحياة والحرية, ممثلا لذلك بأمثلة من قبيل الشمس والبدر والمطر والعطاء, وعلى العموم ان صوت الذات ينتصر في تطلعها إلى الجديد على مستوى الواقع دون الخروج عن حدود الذات. مما آل به الحبس إلى حبسين, الأول مادي متمثل بالسجن والثاني معنوي متمثل بانكفاء الذات على أحلامها وتطلعاتها في حال من التقوقع بسجنها المعنوي, في مقابل السلطة التي استطاعت أن تستأثر بالواقع لكل معطياتها وإن الغياب الحاصل في ذات الشاعر لا يعني الاختفاء الإجتماعي للشاعر وعدم ممارسته للوعي الذاتي.

مما لا شك فيه عند دراستنا لقصائد الشاعر التي قالها في السجن نرى أنها ترسم خطاً بيانياً واضحاً لنفسية الشاعر من أول يوم دخل فيه السجن إلى آخر يوم " لقد دخل علي بن الجهم إلى الحبس متعالياً على النكبة, مستخفاً بالنازلة, معتداً بالذات, حريصاً أشد الحرص على ألا يشمت أعداؤه به, وألا يقر عيون

حساده بضعفه, فلم ينظر إلى الحادثة إلاّ كما ينظر الطود الشامخ إلى الأمواج العاتية التي تصدم سفحه, فهو لا يرى فيها إلاّ دفقات من الماء جاءت لتغسل قدميه, ثم لا تلبث أن ترتد عنهما خاسئة ذليلة"[19] ولنقف عند ابيات اخرى للشاعر يعاتب فيها أعداءه ويعتز بنفسه قائلاً[20]:-

إنْ خسَّ حظِّي من مالٍ تخوَّنهُ صرفُ الزَّمانِ فما عرضيِ بمخسوسِ

أوْ تُغفلوني فأيَّامي تذكِّركمْ أوْ تحبسوني فما شعرِي بمحبُوسِ

وهذه من الابيات الرائعة للشاعر في العتاب والشكوى فأن حاله وحظه السيئ ودائرة الأيام عليه ثقيلة جداً, ولكن يعود ويعتز بسبب سجنه فإن كرامته وعرضه مصان خال من أي تهمة, فيعاتب أحباءه وأصدقاءه قائلاً إن الأيام كفيلة بتذكيري سيما وأنه في السجن ولا يمكن أن يطال شعره وكلماته, فالشاعر وإن كان سجيناً مادياً فإنه حر طلق نفسياً من خلال قصائده وكلماته. إشارة منه إلى قوة شعره ومتانة أهدافه التيلا يمكن حبسها لأي سبب كان, مبطناً بذلك فخره واعتزازه بنفسه وشعره وفكره.

اللافت للنظر في هذه القصيدة أن الشاعر لم يمدح المتوكل ولم يستعطفه ولم يتوسل إليه وإنما عاتبه عتاباً أقرب إلى المخاشنة منه إلى الملاينة وأدنى إلى التنديد منه إلى التودد, وكذلك قل ما ذكر الشاعر أعداءه وأشار اليهم خشية تعلية شأنهم, بل إنه تعالى على المصائب إلى حد جعله يمدح السجن ولا يخشى البقاء فيه والعودة إليه تكراراً. ولكن بعد أن طالت عليه النكبة وان بقاءه في السجن مما جعله يتجه إلى مدح الخليفة في قصائده العتابية دون اللجوء الى الاعتذار والاستعطاف حتى يجعل الخليفة يحس به وبنكبته, أنظر إلى هذا المثال[21]:-

فَلا زالتِ الأَرضُ معمورةً بِعُمركَ يا خيْرَ عمَّارِها

تبوَّأتُ بعدكَ قعرَ السُّجو نِ وقَد كنتُ أَرثي لزوَّارِها

[19] علي بن الجهم حياته وشعره , ص183.
[20] الديوان , ص152.
[21] المصدر نفسه , ص149.

كأن الشاعر أراد من خلال هذه القصيدة أن يأتي ببعد آخر في قصائده العتابية, فإلى جانب العتاب والشكوى يمهد الشاعر للاعتذار والإفصاح عن ندمه وحزنه لما آل إليه الوضع فهو يمدح الخليفة محاولاً تذكير الخليفة بنفسه ووضعه في قعر السجن بعيداً عنه وعن سلطانه وكأن الشاعر أراد من توظيف كلمة القعر أن يلفت نظر الخليفة إلى وهامة وضعه واليأس من عفوه ومغفرته. وفي مثال آخر يتخذ الشاعر من الشيب الذي اشتعل في رأسه منطلقاً للإفصاح عن همومه ومشاكله قائلا[22]:-

حسرتْ عنّيَ القناعَ ظـلومُ وتولّت ودمُعها مسجومُ

أنكرتْ ما رأَتْ برأْسي فقـالت أمشيبٌ أَمْ لؤلُؤٌ منظومُ

قلتُ شيبٌ وليس عيباً فـأَنَّت أَنةً يستثيرُها الـمهمُومُ

واكتستْ لونَ مِرطِها ثم قالت هكذا منْ تَوَسَّدتهُ الهمُومُ

ليس عنـدي وإنْ تغضَّبت إلاَّ طاعـةٌ حرَّةٌ وقلبٌ سليمُ

وانتضارُ الرَّضى فإنَّ رضى السَّا داتِ عزٌّ وعتبهم تقوِيـمُ

فهذه الابيات تمثل شكوى الشاعر من حاله في السجن والذي أدى به إلى الشيب واشتعال الرأس شيبا حيث إنه لا يرى في ذلك مشكلةً أو عيباً لأن بياض الشعر إنما جاء حزناً وكدراً على ما كان فيه من الغبن. وهناك نسق جديد للشاعر يمهد فيه للاعتذار وإن لم يصرح بذلك مباشرة فهو على الرغم من عدم اقترافه ذنباً فإنه ملزم بالقبول والرضى لأن رضى الخليفة إنما عزٌ وتعلية شأن, فهو يقر بذنبه بشكل غير مباشر. و يعمد الشاعر إلى ذكر نسب الخليفة والذي يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قصائده العتابية كثيراً, وكأنه كان صادقاً لمذهبه الديني مدافعاً عن فكره حتى ولو كان مظلوماً يحس بالغبن, انظر وهو يقول في المتوكل[23]:-

[22] المصدر نفسه , ص196.

[23] المصدر نفسه , ص110.

نحنُ في ظلِّ أرحمِ الناس بالنـا سِ وأَولاهمُ ببأْسٍ و جـودِ

صفوةُ اللهِ وابنُ عـمِّ نبيِّ اللّـ ـهِ وابنُ الـمهديِّ وابنُ الرشيدِ

كلَّ يومٍ نـراهُ فيـهِ معافى سالماً فهو عندنا يــومُ عيدِ

هو شمسُ الضُّحى إذا أَظلم الخ طبُ وبدرُ الدُّجى وسعدُ السُّعودِ

يا بني هاشمِ بنِ عبـدِ مـنافٍ نسبةٌ حبُّها مِن التَّوحيدِ

أَنتمُ خيرُ سادةٍ يا بني العبَّا سِ فابقــوا ونحنُ خيـرُ عبيدِ

بما أنّ العتب يقع بين الأحباء والأخلاء فإنه شعور لابد وأن صاحبه يحمل حالة نفسية قاسية وكيف لا وهو يشعر بالظلم والغبن من أقرب الناس إليه سيما وأن القريب كان الخليفة نفسه مما جعل الشاعر يختار طريقة للمعاتبة يكون فيها الأسلوب رقيقاً والنسج على المنوال الديني من ذكر الفضيلة والنسب والتقوى, فهم خير خلق الله داعياً لهم بالبقاء والدوام, فهو بعد مديحه للخليفة يعاتبه عتاباً رقيقاً جداً, مضمناً بذلك معاني كثيرة قد تثير شفقة الخليفة وعفوه ويستمر قائلا[24]:-

حسُبنا الله والخليفةُ من بع ـدُ ومِن بعدهِ ولاةُ العهودِ

غرسُ كفَّيكَ يابنَ عمِّ رسولِ اللّـ ـهِ أنشأْتني وأَورقتَ عُودي

أَنتَ كثَّرتَ حاسيديَّ وقد كنـ ـتُ زماناً لا أَهتدي لحسُودِ

ولو كان الشاعر ذا مكانة اجتماعية مرموقة فهذا من أفضال الخليفة فهو ابن عم الرسول كفيل بمن يراعيه ويتخذه خليلاً وقريبا, فهو بدون أي شك كان السبب لكثرة حساده, سيما وأنه يتذكر أياماً لم يكن من أحد يعرفه حتى يحسده, فالمديح هنا يتضمن عتاباً رقيقاً بعيداً عن الخشونة والشكوى مما يجعل القصيدة هي أقرب إلى الاسترضاء والاستعطاف عن الشكوى والعتاب. وعلى العموم فإن المشاعر التي كانت

[24] المصدر نفسه , ص111.

تسيطر على الشاعر وهو في السجن دفعت به إلى الانزواء والابتعاد عن الناس وهذا ما جعله يشعر بعاطفة جديدة وهي الغربة النفسية والمكانية في قصائد العتاب مما جعل تلك القصائد منبعاً للشكوى. نعود لنؤكد أن العتاب الموجه للخليفة كان أقرب إلى الرقة من الخشونة في العموم, انظر اليه وهو يقول[25]:-

خليليَّ ما للحُبِّ يزدادُ جدَّةً ... على الدهرِ والأيَّامُ يبلى جديدُها

وما لعُهودِ الغانياتِ ذميمـةً ... وليلي حرامٌ أَنْ تذمَّ عهودُهـا

ألمِتْ وجنحُ الليلِ مُرخٍ سدولَه ... وللسجنِ أحْراسٌ قليلٌ هجودُها

فقلتْ لها أنّي تجشَّمتِ خطَّـةً ... يحرِّجُ أنفاسَ الرِّياحِ ورودُهـا

فقالتْ أطعْنا الشوقَ بعدَ تجلُّدٍ ... وشرُّ قُلوبِ العاشقينَ جليدُها

يستفتح الشاعر قصيدته بشكوى غير مصرح بها تحتوي على مشاعر تجيش من الظلم وتشكو الحب الذي يتجدد ولكن الأيام تذهب وتمضي بالشاعر وتقربه من الفناء والعدم. فالليل يعيد الذكريات والعهود القديمة سيما وأن الليل قد أحل بظلامه على الشاعر فهو يشتاق بقلب مفعم بالعتاب والشكوى, ويستمر قائلا[26]:-

وأَعلنتِ الشَّكوى وجالتْ دموعُها ... على الخدِّ لما التفَّ بالجيدِ جيدُها

فقلتُ لها والدمعُ شتَّى طريقُـه ... ونارُ الهوى بالشوقِ يُذكي وقودُها

إذا سلمتْ نفسُ الحبيبِ تشابهتْ ... صروفُ الليالي سهْلُها وشديدُهـا

فلا تجْزعي إمَّـا رأيتِ قيودهُ ... فإنَّ خلاخيلَ الرجالِ قيودُهـا

ولا تُنكري حال الرَّخاءِ وفوتَــه ... فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يعيدُهـا

[25] المصدر نفسه , ص112.
[26] المصدر نفسه , ص112.

بما أن لكل نص موضوعا يعالجه, سيما وأن الشاعر يطرحه في قصائده ليفصح عما في نفسه من العواطف وقد تكون الفكرة واضحة أو غامضة تحتاج إلى التحليل والدراسة لكشف ما في داخلها, وعلى العموم فإن النزاع الحاصل بين الحضور والغياب في النص أثار جدلية, سيما وأن حضور الموضوع في القصيدة يتآتى من خلال البيت الأول, الا أن الحضور لم يكن واضحاً جلياً للقارئ إذ تلفه ضبابية يتلمسها القارئ بعد التأني والقراءة المتتالية. إذ إن الشاعر يخاطب صاحبيه فيتوجه إليهما بالشكوى من الزمان الذي يأتي على كل ما هو جديد فيحيله إلى بالٍ عتيق, وإن الشكوى عند الشاعر ما هي الا غياب للموضوع الذي يريد الشاعر إيصاله إلى القارئ, إذ يأخذ الزمن صفة التسلط على الإنسان, وليس الدهر الا معادلاً للسلطة المتجبرة المتغطرسة على الإنسان, فالأساس في هذه القصيدة لم تكن الشكوى, بل إن حضور فكرة الشكوى هو غياب فكرة الرفض التي تمثل أساس الموضوع الذي يختفي وراء قناع الشكوى, فالشاعر أخيراً يرفض واقعه المرير المتمثل بالسلطة, خروجاً واضحاً عن فكره السياسي والمذهبي سيما وأنه كان صادقاً في انتمائه الفكري والديني والمذهبي وهذا يمثل نقطة البداية لاعتدال الشاعر وابتعاده الفكري, الا أنه لا يفصح عن هذا الموضوع لأسباب تكشفت أمام فعل القراءة تتمثل بالخوف من السلطة التي لا يمكن للذات الشاعرة أن تقف أمامها وتواجهها, لذلك يعمد الشاعر في هذه القصيدة إلى خلق جوٍ من الضبابية والغموض ليحتمي وراءه عندما يصرح بشكل أو بآخر عما يكمن في عواطف الشاعر وأحاسيسها, فالتعمد واضح لتغييب الأساس, وتعويضه بموضوع الشكوى من الزمان رمز التسلط. أو السلطة كما أفصحنا عن ذلك فيما سبق, ومن هنا فقد أبدل الشاعر الموضوع الرئيس بموضوع آخر أظهره في نصه.

الا أن الوصول إلى دلالة الموضوع الرئيس ليس من الاستحالة بمكان الوصول إليه, فالقراءة المتأنية وربط الإشارات ببعضها البعض تدلنا على فكرة النص المتمثلة برفض السلطة ورفض الواقع الذي يعيشه الشاعر من خلال غياب الموضوع الحقيقي أو الواقعي, ونجد هذا الغياب في معظم قصائده التي تحتوي على الشكوى والعتاب مكتفياً بالاستبدال والاستدلال للموضوع الرئيس عن طريق التحليل والدراسة, وأن هذا الغياب الذي استأثر بالذات الشاعرة "لايعني عدم وجوده الكينوني والاجتماعي, إنه يمارس وعيه لذاته,

وتواصلاً في الزمان وانتقالاً في المكان بشكل ما, أو بآخر, متقطعاً مع الآخر الذي يسعى إلى إلغائه, أو وضعه في دائرة الصمت"[27] فالغياب ليس معناه العدم.

والجدير بالذكر أن مستوى العتب وشكله كان يختلف بحسب الموضوع, فها هو يكون خشناً وثقيلاً عندما يرثي موت المتوكل سيما وأن رجاله ووزراءه لم يتحركوا ساكنين لمقتله وموته فهو يعاتب الوزير ورجاله عتاباً ثقيلاً فيه نبرة من الهجاء والخشونة, أنظر له وهو يقول في هذه القصيدة[28]:-

فلمَّا قضتْ حقَّ العراقِ وأهلـهِ أَتاها مِن الرِّيح الشَّمالِ بريدُها

فمرَّتْ تفوتُ الطَّرفَ سبقاً كأنَّما جنودُ عُبيدِ اللهِ ولَّتْ بنودُها

وخلَّتْ أميرَ المؤمنينَ مجدَّلاً شهيداً ومنْ خيرِ الملوكِ شهيدُها

وكانَ أضاعَ الحزمَ وأتَّبعَ الهَوى ووكَّلَ غرّاً بالجيوشِ يقودُها

كأنَّهُمُ لـم يعلموا أنهَ بيعـةً أحاطتْ بأعناقِ الرِّجال عقودُها

فلمَّا اقتَضاها ليلةَ الرَّوعِ حقَّـه جرتْ سنُحاً ساداتُها ومسودُها

وباتتْ خبايا كالبَغايا جنوده وفي زورقِ الصيَّادِ باتَ عميدُها

وكأن الشاعر أراد من مرثيته هذه أن يكون صريحاً والموضوع حاضراً على خلاف السابق سيما وأن الشاعر عندما كان غائباً في موضوعه السابق كان يخشى أن يفقد ما لايتمناه ولكن في هذه القصيدة قد صرح بكل شيء فمعدن الرجال والأصدقاء إنما يتضح عند الشدة وفي الأيام الحرجة, فالخليفة كان يعتمد على أناس من أمثال الوزير عبيد الله بن يحيى حيث كان جالساً في عمله ينفذ الأمور وبين يديه جعفر بن حامد ليلة مقتل المتوكل, فعندما أخبر بالحادث أمر جعفراً بالخروج فخرج وعاد فأخبره أن أمير المؤمنين والفتح قد قتلا. فخرج فيمن معه من خدمه وخاصته, فأخبر أن الأبواب مغلقة, فأخذ نحو الشط فإذا أبوابه أيضاً

[27] المرجعية الاجتماعية في تكوين الخطاب الأدبي , محمد خرماش , حوليات الجامعة التونسية , تونس1995 , ص104.
[28] الديوان , ص114-115.

مغلقة, فأمر بكسر ما كان مما يلي الشط فكسرت ثلاثة أبواب حتى خرج إلى الشط فصار إلى زورق فقعد فيه. هذا بالضبط ما كان يشير إليه الشاعر في وضوح عندما أراد أن يعاتب الرجال والجنود الذين تعاقسوا في الدفاع عن المتوكل وكأن تخاذل الجلساء والندماء كان سباباً في الاستفراد بالخليفة والفتح.

وبذلك نجد أن قصائد الشاعر في العتاب والشكوى من أهم أغراضه الشعرية لأنها كانت مفعمة بشحنات عاطفية صادقة إلى جانب الصدق الفني مع البراعة في التصوير وصياغة الجملة واختيار الكلمات والمعاني, فالشاعر كان مطبوعاً فصيح اللغة, عذب الألفاظ, سهل الكلام ولا غرابة في لغته, ولاتعقيد في نظمه, مع الجزالة والرقة في الكلام, وهو يحسن اختيار اللفظ ويضعه حيث ينبغي أن يكون. انظر وهو يقول في هذه القصيدة مشتكياً حاله[29]:-

توكَّلنا على ربِّ السَّماءِ وسلَّمنا لأَسْبابِ القضاءِ

ووطَّنَّا على غير اللَّيالي نفوساً سامحتْ بعدَ الأباءِ

وأفنيَة الملوكِ محجَّباتٌ وبابُ اللهِ مبذولُ الفناءِ

فما أَرجُو سواهُ لكشفِ ضرِّي ولمْ أفرغْ إلى غيرِ الدُّعاءِ

ولم لا أَشتكي بثِّي وحزْني إلى من لايصمُّ عن النِّداءِ

كثيرا ما لم يصرح الشاعر بعتابه والشكوى من الخليفة خشية ضياع المودة والقرب, الا أن هناك قصائد صرح فيها الشاعر بعتابه فها هو يعاتب الخليفة في هذا المثال عتاباً صريحاً بشيء من الرقة, فبعد أن كان يشكو إليه من سوء أمره أصبح يشكو إلى من هو أعظم وأكبر منه ألا وهو الله الواحد الأحد وكيف لايشكو إليه سيما وأن بابه مفتوح دائماً للعباد والناس أجمعين, معاتباً بذلك غلق الخليفة لكل الأبواب بوجه الشاعر مذكراً إياه بعظمة الخالق وقدرته على الكل.

[29] المصدر نفسه , ص58.

كان للشاعر رؤية خاصة في الحياة ومعتركه سيما وأن الشعراء العباسيون تحدثوا عن رؤيتهم للشعر والشعراء والمتلقين ، وهي رؤية تقوم على فهم لطبيعة الشعر وخاصيته وتأثيره النفسي والروحي في المتلقين ، والإمكانات التي من خلالها يستطيع تحقيق هذا الهدف ، فنجد علي بن الجهم يتحدث عن دوافع شعره ، فدافعه للشعر ليس المال وسؤال الرجال ؛ بل دافعه مستمد من طبيعة هذا الشعر،انظر وهو يقول[30] :

وقصيدةٍ غرَّاءَ يفنـ ـى الدهرُ قبلَ فنائِها

لمْ تستمحْ أَيْدي الرجا ل بمدْحِها وهجائِها

و في قصيدة أخرى يربط الشاعر بين الشعر وقائله منفذاً بذلك وظيفة جديدة لم يكن الشاعر بمعزل عنها وعن نتائجها، فشعره يكتسب الجمال والسيرورة من المكانة الرفيعة للشاعر في مجالس الخليفة ومجالس الشعر والأدب ، يقول[31]

وما أَنا ممَّنْ سارَ بالشِّعرِ ذكْرُه ولكِنَّ أَشْعارِي يُسيِّرها ذِكْرِي

وما الشِعْرُ مِمَّا أَسْتَظِلُّ بِظِلِّـهِ ولا زَادَني قدراً ولا حَطَّ مِنْ قَدْرِي

كل هذا يدل على أن الشاعر كان له رؤية خاص في الحياة والأدب والفكر والفلسفة والدين والمذهب سيما وأنه كان صاحب موقف من الأحداث على جميع الأصعدة في الحياة وعلى الخصوص السياسية والدينية ونقصد بالدينية المذهبية طبعاً, إذ إن الشاعر كان صادقاً في مذهبه وانتمائه الفكري. وكان مدافعاً عن كل ما يؤمن به دفاعاً أحياناً يدفع به إلى التعصب والابتعاد عن الموضوعية .

[30] المصدر نفسه , ص62.
[31] المصدر نفسه , ص139.

الخاتمة

العتاب من الأغراض الشعرية الرقيقة والدقيقة التي تختلف عن الأغراض الشعرية المعروفة فالمدح مثلا يصف فيه الشاعر الممدوح بالقيم الإنسانية النبيلة, والهجاء يلجأ الشاعر فيه إلى ذكر مساوئ المهجو أما العتاب فإنه غرض شعري يضع الشاعر في موقف حرج يحتاج إلى براعة وجدارة وحيطة كي يجعل شعره عتاباً متوازناً بين عواطفه وعواطف المعاتب, ولذلك كانت طرائق العتاب كثيرة تختلف باختلاف أساليب الشعراء في بواعثهم وموضوعاتهم, فالعتب يطلق على فساد العلاقة بين طرفين يسببه أحدهما فيحدث العتب لدى العاتب, فيلوم الطرف الذي أساء المودة أملاً بالإعتاب أو العتبى. فالشاعر عندما يشكو من حاله ووضعه لايهمل ضمنا استهداف أعدائه.

بما أن الخليفة نفسه كان من يعاتبه الشاعر لذلك كان يختار طريقة للمعاتبة يكون فيها الأسلوب رقيقاً وينسج على المنوال الديني من الإشارة إلى فضيلته ونسبه. إلا أنه رغم كل ما حصل من وقوع الشاعر في السجن والابتعاد عن الخليفة يظل وفياً له ولحكمه وفكرهفالشاعر وإن كان سجيناً مادياً فإنه حر طليق نفسياً من خلال قصائده وكلماته, مبطناً بذلك فخره واعتزازه بنفسه وشعره وفكره.

اللافت للنظر في بعض قصائد الشاعر أنه لم يمدح المتوكل ولم يستعطفه ولم يتوسل إليه وإنما عاتبه عتابا أقرب إلى المخاشنة منه إلى الملاينة وأدنى إلى التنديد منه إلى التودد, وكذلك قلما ذكر الشاعر أعداءه وأشار اليهم خشية تعلية شأنهم, بل إنه تعالى على المشاكل إلى حد جعله يمدح السجن ولا يخشى البقاء فيه والعودة إليه تكرارا.

وكثيراً ما لم يصرح الشاعر بعتابه والشكوى من الخليفة خشية ضياع المودة والقرب, إلا أن هناك قصائد صرح فيها الشاعر بعتابه صراحةً بشيء من الرقة, فبعد أن كان يشكو إليه من سوء أمره أصبح يشكو إلى من هو أعظم وأكبر منه ألا وهو الله الواحد الأحد وكيف لايشكو إليه سيما وأن بابه مفتوح دائماً للعباد والناس أجمعين.

كل هذا يدل على أن الشاعر كان له رؤية خاصة في الحياة والأدب والفكر والفلسفة والدين والمذهب سيما وأنه كان صاحب موقف من الأحداث على جميع الأصعدة في الحياة وعلى الخصوص السياسية والدينية ونقصد بالدينية المذهبية طبعاً , إذ إن الشاعر كان صادقا في مذهبه وانتمائه الفكري. وكان مدافعاً عن كل ما يؤمن به دفاعاً أحياناً يدفع به إلى التعصب والإبتعاد عن الموضوعية . فالشاعر كان مطبوعاً فصيح اللغة, عذب الألفاظ, سهل الكلام ولا غرابة في لغته, ولا تعقيد في نظمه, مع الجزالة والرقة في الكلام, وهو يحسن اختيار اللفظ ويضعه حيث ينبغي أن يكون.

المصادر والمراجع

اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري, د. محمد مصطفى هدارة, دار المعارف بمصر, الطبعة الثالثة 1969.

تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول, د.شوقي ضيف, دار المعارف بمصر 1973.

التشيع وأثره في الشعر العباسي الأول, د.محسن غياض, مطبعة النعمان, العراق- نجف الأشرف, 1973.

التيار الإسلامي في الشعر العباسي الأول, د. مجاهد مصطفى بهجت, جامعة بغداد- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية, الجمهورية العراقية.

الحياة الادبية في العصر العباسي, الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي, دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر, الإسكندرية- مصر,الطبعة الأولى 2004.

ديوان علي بن الجهم, تحقيق خليل مردم بك, دار صادر, بيروت-لبنان.

الشعر والشعراء في العصر العباسي, مصطفى الشكعة, دار العلم للملايين, بيروت-لبنان, الطبعة الرابعة1973.

طبقات الشعراء لابن المعتز, تحقيق عبد الستار الفراج, دار المعارف بمصر, الطبعة الثانية 1956.

علي بن الجهم حياته وشعره, عبد الرحمن الباشا, دار المعارف, مصر.

لسان العرب,للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري,طبعة جديدة محققة, دار صادر-بيروت.

المرجعية الاجتماعية في تكوين الخطاب الأدبي, محمد خرماش, حوليات الجامعة التونسية, تونس1995.

موسوعة شعراء العصر العباسي, إعداد عبد عون الروضان, دار أسامة للنشر والتوزيع.